الحوار الإنساني في الحضارة الإسلامية الأندلسية ووقعه على المجتمعات المختلفة

Human dialogue in the Andalusian Islamic civilization and its impact on different societies

الدكتور حسن عنقوري
باحث جامعي
ankourichercheur@gmail.com

ملخص

بعد نظر عميق في تاريخ الحضارة الإسلامية، ارتَأَيْتُ اختيار موضوع الحوار الإنساني خلال العهد الأندلسي الذي اكتسى طابعا مَلموسا ومُشرقا إبّانَ الحِقْبَة الذهبية في الأندلس المُسْلِمة عاصمة العلم والمعرفة ومهد الحضارات. وباعتبار ضرورة الحوار الإنساني في حياة الإنسان لتحقيق أهداف الإجتماع البشري وتجْسيد قيم التعايش والتعارف بين المُجْتمعات المُختفة، ونظرا لإرتباط مفهومه ارتباطا وثيقا بأحداث ووقائع في القرآن الكريم وبرُوزه في تاريخ الحضارة الإسلامية منذ عهد النُّبوّة والخِلافة، فقد امتدَّ أثره في الحضارة الأندلسية بشكل ملموسٍ وجلِيٍ، فتجسدت أهداف الحوار الإنساني بين كل مكوناتها المختلفة، استجابةً لسُنن الإختلاف البشري في المعْمُور، مِمّا يستدعي على العقلاء اعتماد هذا الحوار لمراعاة التنوع والإختلاف بين الأجناس والمعتقدات وصولا إلى حلولٍ توافقية عملية تنسجم مع حركية الواقع وتطوُّر المجتمعات في إطار التَّعايش والتضامن والتسامُح. يُمكن عرض بعض النماذج التاريخية منْ واقع الحضارة الإسلامية في الأندلس تأكيدا لأهمية الحوار الإنساني وضرورته بين مختلف الأجناس والثقافات والمعتقدات على مَدار التاريخ.

Abstract: After Deep look in date Civilization islamic, I saw to choose Theme Human dialogue during the covenant Andalusian that get clothed character tangible And bright during catch him golden in Andalus Muslimah capital Science and knowledge and cradle civilizations. Considering necessity Human dialogue in life Human to achieve Goals the meeting human and embodiment Valuable coexistence And dating between Communities the disappeared, Given to link his concept hyperlinked closely events and facts in The Quran The cream and its prominence in date Islamic civilization since Covenant prophecy succession, Lost spread its effect in Civilization Andalusian in a form tangible glorify So I reincarnated Goals dialogue humanity between all its components different, Response Sunnah the difference human in the globe, ThanReasonable people need to adopt this-Dialogue to take into account diversity andaDifferences between races and beliefsall the wayto solutionsacompatibilitypracticalFit with the movement of reality and evolveat communities within taAish, solidarity and toleranceah. maybe an offer some models historical from reality Civilization Islam in Andalusia confirmation The importance of human dialogue and its necessity between Different races and cultures and beliefs throughout history.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجماعين:

بعد بحث دقيق ونظر عميق في تاريخ الحضارة الإسلامية بالأندلس المسلمة، وخاصة مرحلة العصر الذهبي، وقفتُ على أوجه مشرقة وراقية تجسّدت عمليا خلال الحِقبة الأندلسية عاصمة العلم والمعرفة ومهد الحضارات. ويمكن القول بأنّ الحوار الإنساني الذي اكتسى طابعا ملموسا في الأندلس، قد برز ذلك جليا في تلك الحقبة الذهبية وامتد أثره في العصور المتوالية.

يُعدُّ الحوار الإنساني في تاريخ البشرية أمرا ضروريا، لِمَا له منْ أهمية ومقاصد وأهداف لتحقيق الإستقرار الإجتماعي والأمن الروحي بين المجتمعات المختلفة، فتؤول نتائج الحوار مع المختلفين إلى التفاهم والتسامح والتعايش بين سائر الأجناس والمعتقدات عموما وبين المختلفين خصوصا، وباعتبار أنّ الحوار قضية تستدعي شروطا وضوابط يمكن استلهامها منَ التاريخ الإسلامي، انطلاقا منْ عهد الأنبياء مع أقوامهم، وهذا يؤكد على حتمية الحوار لتكريس القيم الإنسانية المثلى في كل زمان ومكان. ونظرا لارتباط مفهوم الحوار الإنساني ارتباطا وثيقا بوقائع وأحداث في القرآن الكريم وتجسّدت أحكامه في الشرائع السماوية، وترسّخت أساليبه في تصرفات الرسول الأمين عليه السلام ومنْ سار على نهجه منَ السلف الصالح عبر التاريخ إبّان فترات الخلافة الإسلامية، ممّا يُبرز قيمة الحضارة الإسلامية التي تراعي قضية الحوار فتجعله مبدأ أسمى فوق أي اعتبار، مما يستدعي على العقلاء اعتماد الحوار لمراعاة هذا التنوع والإختلاف بين كل الأجناس والمعتقدات، استجابة للآراء المختلف حولها وصولا إلى حلولٍ عملية توافقية تنسجم مع حركية الواقع وتطور المجتمعات في إطار التعايش والتضامن والتواصل.

منهج البحث:

يتبع في معالجة الإشكالية المطروحة المنهج الوصفي ثم المنهج التحليلي الفلسفي ثم المنهج التاريخي والإجتماعي، حيث تقوم الدراسة بعرض بعض من النماذج التاريخية المستقاة من واقع الحضارة الإسلامية بالأندلس والتي تؤكد قمة الحضارة في الجانب الإنساني الذي يتجسد في الحوار الإنساني بين مختلف الأجناس والثقافات والهويات.

إشكالية البحث:

يشير مفهوم الحوار الإنساني إلى دلالات وحيثيات في تاريخ الحضارة الإسلامية بالأندلس، وقبل وضع الأسس والمفاهيم التي تقوم عليها هذا البحث، لا بُد من طرح هذه الإشكالية التي تجيب عنها:

أين يتجلى الحوار إفي العصر الأندلسي، مبرزا وقعه في المجتمعات المختلفة؟

ولعل هذه الإشكالية الجامعة تكون موضوع نقاش علمي من خلال تحليل واقع الحضارة الإسلامية في الأندلس، يمكن تسجيلها في خلاصات مركزة على محاور تستكمل بها البحث المتواضعة.

الكلمات المفتاحية:

الحوار الإنساني -الحضارة الإسلامية الأندلسية- المجتمعات المختلفة.

مفهوم الحوار وأدبياته وضوابطه وسبل إقناع المخالف:

إنّ الحوار من خلال مفهومه يقصد به التشاور والتفاعل الثقافي والاجتماعي بين الأجناس وسط المجتمعات المختلفة، وللحوار دور مهم في القدرة على التكيف مع الأفكار المخالفة والتعامل مع جميع الآراء في جميع النطاقات والنواحي بسلاسة وتفاهم دون إقصاء، وقد تعددت مفاهيم الحوار من خلال أهدافه المنوطة به، لذلك يمكن التعبير عنه بهذه التسميات وهي التواصل والتعارف مع الآخر عن طريق الإحتكاك الثقافي والإجتماعي دون اصطدام مسبقٍ، وهناك مجالات كثيرة تختلف حسب الميادين التي تعيشها المجتمعات في ظل الطقوس والعوائد والتحركات الإجتماعية داخل المحيط الإجتماعي، ومن هذه المجالات، على مستوى اللغة والمعتقد والعادة والفكر والسياسة ونمط العيش، لذلك نجد المفكر جارودي وهو غربي الأصل ولكنه منصف إلى حدٍّ لفكرة ترسيخ ثقافة الحوار.

للحوار أدبيات وضوابط مسبوقة يجب التحلّي بها ومنْ ذلك، الدليل العلمي والتكافؤ بين المتحاورين، فالحوار وسيلة لاقناع الآخر المخالف، وهو طريقة مثلى لحلّ الخلاف والنزاع، كما يقتضي الحجة للوصول إلى الحق. التاريخ علّمنا أنّ الصراعات الحضارية تحسم بحجة القوة في نهاية المطاف، ولذلك فقوة الحجة تعمل على تشكيل وتمييز الصفوف وإقامة الحجة والدليل. ولئنّ كان الحوار يلجأ إليه أحيانا بعد أن تتساوى الحجة القوة، فلا يجب الإعتماد على قوة الحجة فهي

لنْ تغير الواقع في شيء، كما أنّ النزاعات البشرية في أغلبها تكون نتاج صراعات ليس منَ السّهل فض الإشتباك فيها عبْر قوة الحجة لأنّ الحقيقة تكون مغلفة بالباطل والباطل يغلف بالحقيقة، ولهذا ربما يتعين تولية هذه الزاوية أهمية أكبر لفهم كيف تُحسم الصراعات بين الأجناس والشعوب وغيرها من الشرائح والفصائل بنزعة لها دوافع وخلفية سياسية اقتصادية أو اجتماعية أو عقائدية، وخاصة الكبرى منها، فالحجة التي آتاها الله سيدنا إبراهيم عليه السلام لم تغنْ شيئا أمام النمرود، وقس على ذلك، كون الطرف الآخر غير مقتنع بالحوار لفض النزاع لا يغير من طبيعة النزاع. ولا شك أنّ استعمال قوة الحجة وحجة القوة يتوقف على طبيعة الصراع ونوعية مكونه البشري ففي عالم المناظرات الفكرية والدينية، باعتبار المستوى الثقافي للمكوّن البشري يكون الحسم لقوة الحجة، والنموذج من ذلك هو مناظرات أحمد ديدات في الإعجاز العلمي.(١)

ومن ضوابط الحوار أيضا لا بدّ منَ المحاور معرفة الآخر الذي يختلف معه ودراسة نواياه وتفهم مواقفه واختيار العقلاء من الناس للتحاور معهم، واستعمال طرق الإقناع بواسطة استعمال البلاغة وفصاحة اللسان والمعطيات الصحيحة، وكذلك الإقناع بالحجج العلمية الموضوعية وضرب الأمثال للمحاوَر المستهدف في خلفية الخلاف، كما فعل إبراهيم الخليل عليه السلام مع قومه وهو يرشدهم إلى توحيد الله حين ضرب لهم الأمثال بما يعبدونه من الشمس والقمر والكواكب وغيرها مما كانوا يتوهمونه معتقدا وهو خاطئ، فقد صحح لهم ما كانوا عليه. ومن ضوابط الحوار أيضا إنصاف المحاور بالتركيز على نقط ايجابية فيه، وفي هذا الصدد نجد الرسول عليه السلام مثالا واقعيا حين أثنى على النجاشي وهو حبر من أهل الكتاب وقد أرسل ضعفاء مكة وهو متيقِّن بأنّهم سيكونون في أمان عنده فقال: [إنّ فيها ملكا لا يظلم عنده أحد.](٢)

فقد كان الحوار ساريًّا عندما أسلم عددٌ منْ أحبار أهل الكتاب مثل إسلام بحيْرا والنجاشي وعبدالله ابن سلام وغيرهم الذي كان سبب إسلامهم هو الحوار الجاد الذي تفاعل معه المتحاورين كونهم مخالفين بل ألد الأعداء، ورغم ذلك استجابوا للحوار البنّاء لأنه أولهم إلى الحقّ.(٣)

---

(١) المناظرة الكبرى بين الشيخ أحمد ديدات والقس أنيس شوروش، أحمد الصفناوي ديدات، مكتبة ديدات، الناشر المختار الإسلامى، ط١٩٩١م، ج٩

(٢) السيرة النبوية من البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي، باب هجرةِ مَنْ هاجر منْ أصحاب رسول اللَّهِ ﷺمِنْ مكةَ إلى أرض الْحبشة، ب.ط.ت.

(٣) إسلام النجاشي الحبشة ودوره في صدر الدعوة الإسلامية، منيسي سامية، دار الفكر العربي، جامعة ميتشيغان، ٢٧ جوان ٢٠٠٩م، الكتب ذات التنسيق الرقمي، ٢٠٠١م.

قال تعالى : {وَقُولُو لِلنَّاسِ حُسْنًا}البقرة :٨٣ ؛ وقوله تعالى لمّا أرسل موسى إلى فرعون : {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ} (طه: ٤٤ ؛ {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} آل عمران:١٥٩.

يجب على المسلم التحلي بأخلاقيات الحوار امتثالا للقرآن الكريم وهدي الأنبياء والمرسلين، وكذلك التحلي بقيم الأخلاق والتواضع وضبط النفس والهدوء وقوة الذاكرة وتفهم الآخر واعتماد فنّ الإقناع، ومعرفة المحاور كيفية استخدام ضمير المخاطب والمتكلم، وكذا محاولة الخروج بالاتفاق بعد إثراء النقاش وملاطفة المحاوَر كما فعل النبي عليه السلام حين بعث برسالة إلى هرقل: عظيم الروم، وقد استعمل أسلوب الملاطفة والتقدير وهذا أصل الحوار المقبول مع الآخرين، نظرا لمكانته وقدره، وكذلك فعَل مع أبو سفيان حين استأمنه في مكة.

ونظرا بأهمية الحوار وضرورته في حياة الناس جميعا، إلاّ أنّه يقتضي ضوابط تتجلى في شروط وأدبيات المحاور، تتمثل في أخلاقيات وفن إدارة الحوار مع المخالفين. يمكن أنْ نتوقف قليلا عند بعض المحطات التاريخية المتمثلة في شخصيات ذكرها القرآن الكريم زمن الأنبياء والمرسلين، وشخصيات ذكرها تاريخ المسلمين زمن الصحابة الكرام ومن بعدهم، وهذا الذي تجسده صورة الإسلام، باعتباره دين الدعوة ورحمة للعاملين، ولم يقتصر على العرب وحدهم، بل كل الناسة كافة، وهذا يجسد جانبا مهما قد يغفل عنه الكثير في وقتنا الراهن، كون الحوار حكمة وفضيلة أخلاقية. فقد أرسى الإسلام قواعد وأدبيات الحوار الانساني الذي نحن في أمسّ الحاجة إليه في عصرنا، اعتبارا لهذا الوجود الهائل من الأجناس والشعوب والقبائل والأمم والنظريات المختلفة سواء تعلق الأمر في كل زمان ومكان، وهذا الاختلاف يتجلى في المفارقات بين الناس على كل المستويات وفي شتى العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية والعقدية، ويقتضي هذا الاختلاف مراعاة جوانبه والفارق الموجود وتحقيق فضاء للحوار والتواصل مفعمين بأخلاقية الحوار الانساني وتحري الحق و إفحام الباطل.

معالم الحوار في واقع الحضارة الإسلامية بالأندلس:

إنّ حضارة الإسلام في الأندلس خير مثال في الواقع الذي كرّس حضارة إنسانية من خلال صور التعايش والحوار والتسامح الديني والتلاقح الحضاري، وقد اعتُبرت أطول فترة في مراحل المد والازدهار، نتيجة الحوار الانساني بين مختلف الثقافات وصنوف البشرية، فقد ساد الانفتاح على

جميع المعتقدات والثقافات، وقد امتدّ ذلك التاريخ الحافل بروح الحوار والتعايش زهاء ثمانية قرون في عُمُر حضارة الأندلس المسلمة، ممّا شكّلت ثلثي تاريخ الإسلام حيث ترك بصمة في صفحات التاريخ ليكون عبرة ومثالا للأجيال الصاعدة لصناعة المستقبل، ولذلك فإنّ الإسلام مصدر الحوار وهذا بخلاف ما يوجد في التُّلمود الذي يُقر بعدم الحوار ويتبنّى فكرة -لا تُحاور-، بل تحتقر وتسفك الدماء-، وهو مبدأ درجت عنه فكرة الشعب المختار حسب زعم يهود والهدف منه تدمير العالم، بينما في تاريخ الحضارة الإسلامية الأندلسية فقد شكل هذا الأخير قطبا إنسانيا من حيث الحوار الانساني بين المسلمين ويهود وغيرهم من نصارى، حيث كانوا يلجئون إلى المحاكم والمحاماة الإسلاميين بدل اللجوء إلى إدارة الإسبان. لا شك أنّ الحضارة الأندلسية قد بلغت مكانة مرموقة في التاريخ الإسلامي إبان فترة المدّ منَ العطاء الحضاري والتراث الزاخر الذي لا يزال يعطي أكله وتستفيد منه إسبانيا وأوربا عموما، والحديث عن الحوار الانساني يطول، غيرَ أنّ التاريخ يؤكد إرساء دعائم الحضارة الإنسانية الذي تعايشت فيه كل الأجناس والمعتقدات، وتلاقحت من خلاله اللغات والثقافات، وتجلت مختلف الفئات على تنوعها، فأثمرت مجتمعا متفاعلا مُبدعا تحققت فيه كل معاني معالم الحضارة الإسلامية التي تكرس قيم الإنسانية وتكمل مستوى عمارة الإنسان في الأرض باعتباره خليفة الله فيها، بذلك فقد تحققت لجميع الشرائع الكرامة والحرية وكفلت لهم الحقوق، ولعل أبرز قيم هذه الحضارة التي أشرق فيها الحوار بين المعتقدات تتعلق بالتواجد المكثف من النصارى واليهود الذين كانوا يشكلون شريحة مهمة في الأندلس، فقد عاشوا هؤلاء جميعا في جوٍّ يطبعه الحرية والممارسة لشعائرهم وطقوسهم، فقد عاشوا مع المسلمين حياة يسودها الاحترام والتآزر والتعاطف والتراحم، وقد تحقق الحوار بين الثقافات المتواجدة في المعمور بغَضّ النظر عن أيّ دافع من الدوافع بين شتى الأجناس والأعراق. فالحوار بين الثقافات والهويات المختلفة كان من الأمور اللاّزمة اعتبارها في المجتمع الأندلسي الذي لم يعرف البتّة التعصب الديني إلا في حالات استثنائية قليلة وشاذة، وتزداد أهمية الحوار في الأندلس خاصة عند بروز محددات في العالم المعاصر الرامية إلى تأسيس نظام عالمي جديد، في حين يُلاحظ أنّ الإسلام يتعرض لحملات التشويه من مستشرقين إسبان وغيرهم وعلى رأسهم جولد زهر وكذلك تشويه صورة المسلمين الفاتحين وتقديم نظرة خاطئة عن تصرفاتهم أثناء دخولهم بلاد الأندلس، هذا إلى جانب ترويج النظريات والأفكار التي تخفي الوجه الحقيقي التي كرسته الحضارة الإسلامية في الأندلس، وهذا الذي تطرق إليه غوستاف لوبون ما يُلقي على الباحثين والكتّاب مسؤولية الكشف عن العوامل التي جمعت بين الشعوب ووحدت أهدافهم ورؤاهم،

والتنقيب عن الأسس والمرتكزات التي أفرزت قاعدة صلبة لحوار الحضارات عبر مراحل التاريخ، لذلك فقد هيأت الحضارة الأندلسية مذ نشأتها ومراحلها الأولى الإطار الأمثل الذي يتفاعل مع سائر الثقافات والفئات، فقد اندمج اليهود والنصارى في جوٍّ من الحرية والسماحة وتكافؤ الفرص في المجتمع الأندلسي الجديد آنذاك، حيث صاروا بذلك يتعلمون ويتثاقفون ويسهمون في البناء دون عائق أو تشدد أو تضييق، وهو الأمر الذي جعل الكثيرين منهم يحظون بمكانة عالية ويتقلدون مناصب عليا في الإدارة والسياسة، فقد عاش الذِّميون الأمنَ والاستقرار في دولة الإسلام بالأندلس، بما يتمتعون منْ حرية المعتقد والتعبد منذ الفتح الإسلامي لمنطقة إيبرية، وقد مورس الحوار بين مختلف عناصر الشعب الأندلسي طوال عصور المسلمين في أزمنة السلم وأزمنة الحرب وبين المنتصرين والمهزومين كذلك.

يمكن القول أنّ الحضارة الإسلامية في الأندلس أضحت تمثل الصوت الأعلى والأمثل في رسالتها الحوارية، وقد تمّ ذلك على مدى قرون عديدة فشكّلت الحضارة الأندلسية حيّزًا إنسانيًّا ممتازًا للحوار والتفاعل بين الشرائع السماوية الثلاثة، وأكثر منها شهدت هذه الفسحة العصر الذهبي للثقافة العبرية التي اتخذ شعراؤها وأدباءها وعلماؤها ومفكروها اللغة العربية أداة تعبير وتواصل وتفكير، حيث دوّنوا بها خير ما جادت به قرائحهم، بل إنَّ كثيرًا من النصارى واليهود والصقالبة احتَلّوا مراكز سامية في الحكم وتبوؤوا مراتب ممتازة في الحياة العامة، فكان منهم الوزراء والشعراء والشاعرات والأطباء والموسيقيون، وقد بدا الأندلسيون في الأعين منصفين بأمّ فضائل المدنية، فضيلة التسامح المطلق، والحوار والتفاعل مع العناصر الأخرى لدرجة أثارت إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء.(١)

صور الحوار الإنساني وتمثلاته بين المختلفين في العهد الأندلسي:

معلوم أنّ الحوار يتمّ بين أفراد وجماعات وبين شخص لآخر، بصَرْف النظر عنْ كلّ شخص وانتماءه وأصله، الحوار يأتي حين يحدث الخلاف بين الأشخاص يستدعي استحضار الوازع الديني، فالدين الإسلامي يحافظ على الأفراد والجماعات ويحاول وحدة الأفكار وجعلها متقاربة في إطارٍ من التعارف والتسامح وعدم التصارع، باعتبار أنّ البشر ينقسمون إلى قسمين:

(١) المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، نموذج من العطاء الحضاري الأندلسي، د.إبراهيم القادري بوتشيش، عدد:١١، رجب ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، مجلة دراسات أندلسية، تونس، ص٢٢ (بتصرف).

الأول: يؤمن بالإسلام. **الثاني:** لا يؤمن بالإسلام، بحسبِ كلٍّ منهما يختلف عن الآخر في العِرق واللون واللغة والثقافة والفكر والأسلوب والمعتقد، وعلى أساس هذا التقسيم يتحدد كل شخص في هذه الأرض، بلْ في كلّ زمان ومكان، لذلك فإنّ الشريعة الاسلامية جعلت الحوار والتعايش مع الآخرين الذين من كيان عقدي آخر، كما تؤكد النصوص الشرعية من الكتاب والسنة قيمة هذا الحوار الذي حصل في زمن النبوّة والصحابة وتعاقبته أعصر العالم الإسلامي، وقد تمكن الفاتحون المسلمين في الأندلس من جعل الحوار مع الآخرين من غير المسلمين فوق أيّ اعتبار، وهذا يعتبر من أسمى المميزات تخصصت به الشريعة السمحة، فقد ذكر د.عباس الجيراري في موضوع الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح أنّ: أرض الأندلس كانت أحسن مثال على إنجاز تاريخي يصعب وجوده في الوقت الحاضر، فكانت أرض التعايش والتسامح وأرض الحريات، فقد كانت نموذجا لإقرار الاختلاف مما لبث النصارى واليهود الإسبان الذين يعيشون في الثغور الإسلامية يتمتعون في ظل الحكم الإسلامي بضروب الرعاية والتسامح، وكانت الحكومات الأندلسية في أزهى عصورها تحافظ على مبدأ الحرية التي اتبعت إزاءهم منذ الفتح وتعاملهم برفق، وتحترم شعائرهم الدينية وتقاليدهم القومية، وتجتنب أي محاولة لإرغامهم باعتناق الإسلام، وقد حافظ الذميون في الأندلس على عاداتهم وتقاليدهم، واعتلوا مناصب عالية ووظائف سامية في الدولة.(١)

مع العلم أنهم عانوا الاضطهاد المقيت من قِبَل سطوِ الكنيسة لهم قبل الفتح الإسلامي، وقد بلغ الحوار والتسامح الديني الحضاري ذروته في عهد الخليفة عبدالرحمان الناصر وابنه المستنصر بالله، يقول البروفسور برينت: «في هذا العهد الخليفي وجد تسامح ديني وسياسي كبير وظهر تعاون وثيق بين علماء ينتمون إلى أجناس وأديان مختلفة..»(٢).

لقد كانت فترة الخلافة الإسلامية في الأندلس تمثل العصر الذهبي من حيث العلوم والحوار الانساني والتسامح الديني والتعارف بين الناس والتلاقح بين الثقافات في ظل النظام الإسلامي، نتيجة ما شهدته المنطقة من ازدهار ورقي علمي وحضاري: «وقد كان الحظ أوفر كل المعتقدات والديانات، ومن ذلك كان الحظ كفيلا بالأقلية اليهودية التي ظلت تتمتع بهذه الحقوق وهذه

(١) التسامح الديني وأثره في حضارة الأندلس، د.عباس الجيراري، ورقة بحثية ضمن فعالية الندوة الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، ط١، ٢٠٠٣م، ص٤٨

(٢) موسى ابن ميمون-حلقة وصل بين الشرق والغرب-، أبو حامد الغزالي، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، ١٤٠٦ه/١٩٨٦م، ص٢٠ (بتصرف).

الحريات، والنموذج هو الحاخام موسى بن ميمون يمتهن الطب والفلسفة في قرطبة الذي تأثر بالفكر الإسلامي تأثيرا عميقا وهذا ظاهر من خلال مؤلفاته مثل: -دلالة الحائرين-، وقد مثّل ذروة التفكير الفلسفي الذي تأثر بالفكر الإسلامي في القرون الوسطى، حتى اعتُبِرَ عند يهود موسى الثاني نظرا لعلمه وفقهه ..»[١].

فقد عزا بعض المؤرخين هجرته مع عائلته من الأندلس نحو مصر إلى اضطهاد الموحدين لليهود والنصارى، وقد أثارت قضية الاضطهاد عدد من المؤرخين القدامى والمحدثين، حيث نعتوا المرابطين والموحدين بعدم التسامح والحوار، وقد عرف عصرهما بعصر التعصب الديني، وهذا ينبغي أخذه بعين الاعتبار في ميزان العدل لتلك الحقيقة التاريخية، وقد قال د.محمد بن شريفة: «وهذه قضية ينبغي أن توضع في الميزان وتناقش بموضوعية وإنصاف وتحاكم في ضوء المعطيات التاريخية مع الابتعاد عن الأحكام المرتجلة والآراء المغرضة المسبقة والأهواء العاطفية المتحيزة، وإنّ أول ما ينبغي اعتباره في هذه المسألة هو أن ملامح الأندلس قد تغيرت كثيرا بعد الأمويين، وأن ظروفها في عهد المرابطين والموحدين هي قطعا ظروفها في عهد أولئك، نظرا لاحتداد الصراع بين دار الإسلام ودار الحرب منذ القرن الخامس عشر الهجري، ومن جهة قد تمّ استغلال التسامح والحوار في عهد ملوك الطوائف، مع ما نتج عنه من جهة أخرى.»[٢].

يمكن القول انطلاقا من هذه المعطيات التاريخية أن الأوضاع في الأندلس على عهد المرابطين والموحدين قد تغيرت، وأنّ الصراع الإسلامي المسيحي بلغ درجة كبيرة من الحدّة، كما أن وضع يهود تغير عمّا كان عليه قبْل ذلك، حيث بدأت تصدر منهم مناوشات وأخذوا يلعبون على الحبلين، عندما قويَ ما يُعرف بحركة الاسترداد، بل إنهم مالوا إلى الجهة الأخرى، وصار كثيرا منهم في خدمة ملوك قشتالة وغيرها من المماليك، وقد اعتبر المرابطون والموحدون هذا خروجا من يهود عن موقف الحياد على الأقل من الصراع القائم، فكان من الطبيعي أنْ تتغيّر معاملاتهم ليهود، ومع هذا فإنّ التتبع الدقيق للأخبار والتحليل الأمين لجزئياتها ومعطياتها يوقفنا على أن معاملة المرابطين والموحدين لأهل الكتاب لم تخرج منْ حيث الأساس عمّا هو مقرر في الشريعة الإسلامية.»[٣] ؛ثمّ إنّ مسألة الإضطهاد التي ألح عليها الذين ترجموا عن موسى بن ميمون مثل: إسرائيل الفونسو في كتابه: -موسى ابن ميمون حياته ومصنفاته- هي مسألة بدون سند معتمد ولا

(١) الأعلام، الإمام الزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، ٣٢٩/٧ (بتصرف).

(٢) حول التسامح الديني، د.محمد بنشريفة، ضمن مجلة دراسات أندلسية، عدد: ١٤، جوان، ١٩٩٥م، ص٢٦.

(٣) موسى ابن ميمون-حلقة وصل بين الشرق والغرب-، أبو حامد الغزالي، ص٢٣-٢٤ (بتصرف).

نص تاريخي قاطع، ولهذا يمكن أنْ تعلل التنقلات موسى بن ميمون بأنّها كانت لطلب العلم ولقاء العلماء، وأنّ رحلته إلى المشرق كانت أمرا عاديا مثل رحلات الكثيرين من الأندلسيين والمغاربة المسلمين الذين رحلوا إلى المشرق، وأقاموا به في نفس التاريخ، وثمَّة باحثون يروْنَ أنّ الثقة التي قضاها موسى بن ميمون في الأندلس والمغرب فترة غامضة، وعلى العموم فقد عرفت الأندلس هجرة الناس من مسلمين وغيرهم في أوقات الفتن منذ قرطبة غداة سقوط نظام الخلافة إلى ما تلاها منْ فتن في أواخر الطوائف والمرابطين والموحدين.»[1].

وخلاصة القول، أنّ الحوار المتفاعل بين المسلمين وبين اليهود ونصارى وغيرهم من الأجناس كان سائدا في إطار الحضارة العربية الإسلامية بشكل تلقائي، بين شعوب المنطقة المختلفة الأجناس والمعتقدات في جوٍّ يسوده الحوار والتعايش.

أهمية البعد الديني في إرساء الحوار الانساني الأندلسي:

إنّ اختلاف الأجناس والمعتقدات يعقبه بالضّرورة تغاير الثّقافات وتعدّد الأفكار والعادات، وبالرغم من هذا التنوع والإختلاف فقد شكل تلاقحا حضاريا في المعمور تجسيدا للقرآن الكريم والسنة النبوية وتصرفات الرسول عليه السلام وصحابه الكرام رضي الله عنهم، وقد سلك الفاتحون الأولون هذا المسلك في تجسيد تعاليم الشريعة الإسلامية في التعامل مع الآخرين، لذلك استقطب العديد من غير المسلمين لاعتناقهم الإسلام طوعا، فقد تعامل الفاتحين تعاملا يمتثل النّصوص الشرعية مع هذا التّغاير والتّنوع الذي يتواجد في اليهود والنصارى والذميون وغيرهم، وذلك بمقتضى محددات قيم الإنسانية في الدّولة الإسلامية بالأندلس، ونظرا لما منح الشارع الحكيم للذمي أو المخالف في معتقده أو ثقافته أو لغته، أحقيّة التعامل معه والتصرف بكل حرية وتقبله والتعايش معه والحوار معه، فقد صارت الأندلس إبان الفتح الإسلامي مجتمعا متناسقا تتنوع فيه الأجناس والمعتقدات وتختلف، لذلك استوعب الحوار الديني بعدا أساسيا بين هذه الشرائح المجتمعية المختلفة، وقد اتبع المسلمون أسلوبا رائدا في الإستيطان بالأندلس عن طريق عرض الأحلاف والتنازلات عن المدن، وتمّ إبرام معاهدات الصّلح التي حدّدت القاعدة القانونيّة، ورسمت الخطوط العريضة في إطار التعايش الحضاري المبني أساسا على الحوار في التّعامل مع الأهالي في البلاد المفتوحة، فقد نصّت تلك المعاهدات، مثل تلك التي كتبت بعد فتح خيبر

(١) موسى ابن ميمون، نفسه، ص٢٧-٢٩ (بتصرف).

مع يهود وأهل جرباء وأذرج..[١]

وقد تجسدت تعاليم الإسلام السمحة على ضمان حرية التفكير والمعتقد لأهل الذّمّة، وأباحت لهم إقامة شعائرهم وطقوسهم في كنائسهم، كما أباحت لهم الجهر بها في أماكنهم، وأقرّت الشريعة الإسلامية على السماح لهم فيما يتعلق بالتعامل بينهم منْ معاملات ما لم يتحاكموا إلى المسلمين، يمكن القول أنّ معاملة المسلمين في الأندلس للمعاهدين منذ الفتح ظلت تنّم عن الجانب الإنساني الذي غرسته العقيدة الإسلامية في معتنقيها، حتّى وهم يخوضون غمار الحرب، وفي نظير هذه الحقوق التي تمتّع بها أهل الذّمة كان عليهم واجبات ماليّة، تتمثّل في الجزية والخراج، فأمّا الجزية فقد أوجبت استنادا إلى ما جاء في الشريعة الإسلامية، وقد كانت الجزية تُؤخذ لقاء تعهّد المسلمين بالمحافظة على أرواح المعاهدين وأموالهم ولقاء إعفائهم منَ القتال مع المسلمين، بينما المسلمين يدفعون الزكاة المفروضة حقّا عليهم، وقد كانت تسقط الجزية عند اشتراك الذميّين مع المسلمين في مهمّة الدّفاع عن بلاد الإسلام أو عجز المسلمين عن حمايتهم أو حال دخول الذمي في الإسلام، أما الخراج فهو ما يفرض على الأرض من ضريبة سنويّة ولا تسقط بإسلام الذميّ، ولذلك فقد كانت أسس التّعامل بين المسلمين والذميين كما دعت إليها الشّريعة الإسلامية تجسيدا للحوار الديني الحضاري بين الدّاعين للإسلام والراغبين عنه، فقد كانت بلاد الأندلس أحسن مثال على إنجاز تاريخي امتثالا لعهد السلف في عهد النبوة والخلافة الراشدة، فكانت موطن التعايش والتّسامح وأرض الحريّات ونموذجا لإقرار الإختلاف. فقد اتبع المسلمون مبدأ حرّيّة المعتقد الذي دعا إليه الإسلام، فاتسمت البيئة الأندلسيّة بالتّنوّع والتّعدّد، حيث تشكّلت منْ أجناس وأعراق صهرها الإسلام في بوتقة غير مفرّقة بين سكّانها الأصليين المسيحيين من أصل قوطي أو روماني والوافدين عليها منْ عربٍ بربر والمتساكنين اليهود.[٢]

وقد كان النصارى واليهود الإسبان الذين يعيشون في القواعد والثّغور الإسلامية عصورا يتمتّعون في ظلّ الحكم الإسلامي بضروب الرّعاية والتّسامح، وكانت الحكومات الأندلسية حتى في أزهى عصورها تحافظ على مبدأ الحرية الثقافية والعقدية التي اتبعت إزاءهم منذ الفتح وتعاملهم بأحسن التعامل، من حيث احترام شعائرهم وتقاليدهم القومية، واجتناب أيّ محاولة لإرغامهم على اعتناق الإسلام مكرَهين عليه، وقد حافظ الذميون في الأندلس على عاداتهم وتقاليدهم، واعتلوا مناصب

(١) للتفصيل ينظر: الطّبقات الكبرى، ابن سعد، تحقيق: إدوار سخاوي، ليدن بريل، ب.ط.ت.

(٢) التسامح الديني وأثره في حضارة الأندلس، د.عباس الجيراري، ص٤١ (بتصرف).

عالية ووظائف سامية في الدّولة.(١)

هذا بالرغم منْ أنّهم ذاقوا الأمرّين من اضطهاد سلطة الكنيسة لهم قبيل الفتح الإسلامي، وقد عاشوا الحرية في الأندلس، مما جعل اندماج عناصر المجتمع وانصهار مكوّناته عبر المصاهرات والزواج المختلط.(٢)

كما برزت أواصر التّواصل الحضاريّ الأندلسي بين مختلف مكوّناته عبر الإحتفال المشترك وتبادل التهاني في المناسبات والأعياد بين المسيحيين واليهود والمسلمين، وهذا دليل على تجسيد أواصر التعايش والحوار والتواصل المتكامل بين الثقافات والأفكار، وكذا المعتقدات نتيجة الاعتراف بالآخر وكيانه اللغوي والعقدي، فقد كانت الأندلس محطة تواصل بين هذه الشرائح المجتمعية فضلا عن كل جنس وعرق ومعتقد، وقد تسارع نسق الإختلاط والإنصهار وأفضى إلى حصول أجواء مميزة تعدّدت ألوانها ومظاهرها، ممّا أفضى إلى صورة يطبعها التلاقح الحضاري داخل المجتمع الأندلسي الذي تجاوز معظم التناقضات الموجودة بين تلك الشرائح. إنّ من أبرز سمات الحرية والحوار بين المعتقدات في الأندلس، الجدل الديني الحاصل بين أهل الكتاب من مختلف الشرائع السماوية الثلاثة، فقد كانت الأندلس نبراسَ الرُّقيِّ المعرفي وقبول الآخر، وقد كان الحوار الإسلامي اليهودي النصراني هو ما اختاره المسلمون الأوائل في الأندلس طريقا للتعايش وتكريسا لمبدأ الحريّة، وقد شكلت النقاشات بين فقهاء الإسلام ورهبان النصارى وأحبار يهود مقدمة ضرورية لمزيد من التعرف على الآخر، وتراوحت هذه المجادلات الدينية بين مجادلات اتسمت بطابع الهدوء والرصانة واعتمدت مهذّب الكلام، وبين مجادلات طغى فيها الشّتْم والإفصاح عنِ التباغض، وقد أبرز إبّان العصر الوسيط في الأندلس.(٣)

أمّا المسيحيون، فقد كان جلّ قساوستهم ورهبانهم يجادلون، ومنهم رامون مارتي الذي كان فصيح اللسان في مناظراته، كما قال ابن رشيق: «كان فصيح اللسان مدركا للكلام معتدلا في المناظرة.»(٤)

---

(١) التسامح الديني وأثره في حضارة الأندلس، نفسه، ص٤٨.

(٢) ينظر: تاريخ النصارى في الأندلس، د.عبادة كيحلة، المطبعة الإسلامية الحديثة، ١٩٩٣م.

(٣) حول التسامح الديني، د.محمد بنشريفة، السابق، ص٢٦ (بتصرف).

(٤) المعيار المعرب والبيان المغرب في فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، القاضي الونشريسي أحمد بن يحي٩١٤هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١٩٨١، ١٥٥/١١

فقد اتّسم عهد الأندلس بأواصر التواصل والتعارف المبني على الإحترام والإعتراف بين المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم حتى تعربوا وصاروا يجيدون العربية كلاما وكتابة، بل وتأليفا، وكان الدين الإسلامي هو موضع التواصل والنقاش، فقد كان سببا في تجسيد الحوار الفعال الذي يطبعه الإحترام والإعتراف بين الأطراف المعنية، لذلك ذكرت كتب التاريخ أنّه قد استفاد المستعربون من المجتمعات الأخرى من الحرية نتيجة الحوار الإنساني الذي أبرزه المسلمون في الأندلس منذ عهد الولاّة وحتى آخر حكم بني الأحمر صاحب غرناطة، فقد ضمِنت لهم هذه الحرية عدم التّعرض للمسائلة أو المحاسبة القانونية منْ قبَل أصحاب السيادة الأندلسية، جرّاء الأفكار المتداولة بين أولئك لدرجة أنّ بعض القضاة الّذين شهدوا تلك المناظرات الدينية، تسامحوا مع عدد من المواقف التي قال بها أولئك المتحاورين من أهل الكتاب والتي تعدّ قذْفا وتتعرض للمحاسبة على ذلك، فقد كانت التعدّدية الثقافية والعقدية والعرقية في الأندلس، تمثّل الصورة الحيّة لواقع الحرّيات والحوار الإنساني بين جميع الشرائح، ولم تكن تتوقف عند الإقرار بحقّ الآخر في الوجود، بل تتجاوز ذلك إلى احترام حريته في إقامة شعائره واختيار معتقده بلا تضييق بكل حرية وجرأة، وهذا يعبر في حقيقة الأمر على صحّة الحوار الإنساني في واقع المجتمعات الأندلسية في ظل الحضارة الإسلامية.

البعد الثقافي للحوار الحضاري خلال الحِقْبَة الأندلسية:

تطرقت دة.ماريا روزا مينوكال في كتابها: الأندلس العربية -إسلام الحضارة وثقافة التسامح- لموضوع التعايش والتسامح الذي ساد المجتمع الأندلسي، فأكّدت في مستهلّ ذلك على أنها تسعى بشكل كبير لتأريخ المناخ الحواري الذي ألقى بظلاله على المجتمع الأندلسي: «تبرهن أكبر إنجازات الثقافة الوسيطية على سموِّها في جعل رأيين يتعايشان، بل غالبا ما كانت تصل إلى أبعد من ذلك، كما يبيّن هذا العصر الذي شهد تعايش اليهود والمسيحيين والمسلمين، لقد تمكنوا بعيدا عن اختلافاتهم التي يتعذّر حلّها وعن الحقد المترسخ بينهم منْ تغذية ثقافة ثاقبة قائمة على التسامح، وهذا المفهوم الصّعب هو الذي أردت أنْ أثيره في هذا المحور، ولم يكنْ يعني هذا التسامح نادرَ الإعتراف بالحريات الدينية أو حرية المعتقد كما يُتصور في إطار مفهوم معاصر لهذا اللفظ، إنّ هذا التسامح كان يتجلى فعلاً في العقيدة الضمنية والمضمرة، بدون شك، والتي يمكن معارضاتها، في ذاتها وداخل ثقافة ما، أن تكون إيجابية ومنتجة، وفيما يطبع الثقافة الوسيطية تجد عناصر لا تُحصى جذورها في هذه الثقافة، في تعقدها، في مُتعها،

وفي تحديدها للتعارض، وقد كانت هندسة التعارضات تجد تعبيرها في الثقافة التي كانت تأويها الأندلس، وهذا ما يجعل الدارس يعيد النظر في خريطة أوربا، ونضع البحر الأبيض المتوسط في مركزها، وكذلك يعيد النظر على الأقل في هذا الجزء من التاريخ الأندلسي، وقد تعرّب يهود بصورة عميقة، وتمّ اكتشاف العبرية وأعادوا ابتكارها، وقام المسيحيون ببناء كل مظاهر الأسلوب العربي تقريبًا والمنهج الفلسفي، وحتى الهندسة المعمارية للمساجد، ولم يقتصر هذا على زمن السيادة العربية، بل تعداه إلى زمن ما بعد انتزاع السلطة منهم، و لم يتردد رجال ذو إيمان راسخ، أمثال أبيلار، ابن ميمون، ابن رشد وهم يبحثون عن الحقيقة الفلسفية أو العلمية أو الدينية في تجاوز حواجز المعتقدات، لذلك فقد أدرك هذا النموذج المثالي منَ التسامح ما كان يمنحه التّنوع والتعدد الفردي والثقافي مِنْ غنى ومن ثمار، إننا نقف حيارى أمام ما بقي واستمر من الثقافة الأندلسية..[١]

وباعتبار أنّ موقف دة.ماريا مبني على الإحترام والحوار الإنساني بحسب منطق التفكير لديها، نظرا لِما شهده المدُّ الحضاري في رقيّ وازدهار البلاد الأندلسية من كل أنواع الفنون والعلوم، مما جعله يؤثر في بناء أوربا متجاوزا الحدود الجغرافية الإسبانية، وهذا ما تجلى في مواقف عدد منَ المفكرين والكتّاب المنصفين والرهبان الذين عايشوا الأحداث، ومثال ذلك ما شهدت به الراهبة هرُوتْسفيتا دو غاندرسهايم والتي كانت تتمتع بمكانة كبيرة في الأوساط الدبلوماسية والإجتماعية في بلاط الملك أوتون الأول، تقول دة.ماريا مسترسلة: «كانت جوهرة العالم الساطعة التي تلمع في الغرب معروفة بثرواتها وكبريائها يحتفي بها لملاذّها ومُتعها متألقة في كل شيء لامعة على الخصوص بالعلوم العقلية السبعة الثلاثية والرباعية، وبانتصاراتها المتوالية..».

وهذه شهادة كفيلة بالأحداث الرامية إلى الحوار الإنساني الذي حضي به كل الشرائح من غير المسلمين، كما أنّ البريق واللّمعان قد أشعّ على كامل الكوْن وجعل تنوع الديانات متعاليا، ولكيْ تدلل المؤلفة دة.ماريا على تسامح المسلمين واحترامهم الكيانات الأخرى المختلفة والأعراق المختلفة، تعقد لذلك مقارنة بينهم وبين من سبقهم من القوط فتشير إلى أنّ هناك اختلافا كبيرا بين المسلمين والقوط، وقد عبرت عن ذلك بقولها: «فخلافا للقوط الذين تميزهم إثنيتهم قبل كلّ شيء، ولبثوا أقليّة على مدى السّبع مائة سنة التي هيمنوا فيها على إسبانيا، كان المسلمون ينحدرون من جماعات إثنية متنوعة، وكانت قوّة المسلمين تكْمُن شأنهم شأنَ المسيحيين قبلهم

(١) الأندلس العربية-إسلام الحضارة وثقافة التسامح-، دة.ماريا روزا مينوكال، ترجمة: عبدالحميد جحفة ومصطفى جبّاري، منشورات دار توبقال للنشر، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م، ١٦، (بتصرف).

في اقتناعهم بأنّ الحوار لم يكنْ ممكناً فحسب، بل إنّه كان مرجوًا ومأمولا، وينبغي تشجيعه ودعمه، وإذا دعا الأمر، بالضغط البراغماتي الذي تمثله المزايا المدنية التي تُتِيحُها منزلة المُسلم، لا فرق في ذلك بين مسلم أسلم منذ يومين ومسلم ينحدر من قريش، وقد جعل هذا الأمر الناس يقبلون بكثافة على اعتناق الإسلام.»

وقد تطرقت دة.ماريا إلى العلاقات والوشائج التي نشأت بين الأندلسيين، فأبرزت تلك العلاقات الدينية على اعتبار أنّ اليهودية انبعثت من رمادها وخرجت من تلك الحياة الفظيعة التي أغرقت فيها منَ الحكم القوطي، حتى أضحى وزير الشؤون الخارجية يهوديا، يعمل جنبا إلى جنب مع الخليفة المسلم، وقد تجلت اللغة العربية في المعمور وحظيت بالإهتمام الكبير، تقول دة.ماريا: «كانت العربية لغة محترمة تستعمل في الإمبراطورية كلها وموصولة بباقي الحضارة، وعلى مرمى البصر، بل في ما وراء ذلك كانت اللغة العربية اللغة المشتركة عالميا، وفي كل مكان تقريبا منْ شبه الجزيرة المفعمة بالحيوية، فرضت العربية نفسها بوصفها اللغة الدّالة على الرِّفعة والسُّمو داخل الجماعات من الديانتين، ولم تترك الإدارة الإسلامية الجديدة اليهود والمسيحيين على قيْد الحياة فحسب، بل إنّها في إطار تنفيذها لِمَا ورد في القرآن الكريم، عملت عموما على حمايتهم، فعرف اليهود والمسيحيون في الأندلس تعريبا واسعا بعد سنوات على وصول عبدالرحمن الداخل إلى قرطبة، وفي أواسط القرن التاسع، في أحدِ أشْهر وثائق ذلك العصر، نجد بولفار القرطبي يشكو منْ عجْز الشبان المنحدرين منَ الجماعات المسيحيين عن كتابة رسالة واحدة باللاّتينية، في حين أنّهم يكتبون قصائد بعربية فصحى تضاهي تلك التي يكتبها المسلمون.»[1]

والدليل على سريان اللغة العربية وتداولها بين الأجناس المختلفة في الأندلس، بحيث شكّلت جسرا للتواصل والحوار الإنساني بينهم، ويتضح ذلك جليا من خلال كتاب: -الدليل المنير- لمؤلفه الكاتب بولفار القرطبي المسيحي مبرزا بذلك أنّ المسيحيين يعشقون قراءة الأشعار والقصائد العربية، يدْرسون كتب الفقهاء والفلاسفة العرب، لا من أجل الردِّ عليهم أو مجادلتهم، وإنما منْ أجل اكتساب عربية جيدة وأنيقة، كما يستفسر قائلا: «هل يوجد منْ بيْن غيرِ المتديّنين مَنَ لا يزال يستطيع قراءة الحواشي على الكتابات المقدسة باللاّتينية، أو يعكف على دراسة الأناجيل أو الأنبياء والدعاة والمبشرين؟».

(١) الأندلس العربية، دة.ماريا، السابق، ص٣٠.

وقد ظهر من خلال ذلك إطلاع العديد من الباحثين على اقتناء الكتب العربية، وذلك بأموال مكلفة في جمعها من المكتبات التي تزخر به المعمور، في حين يحتقرون الكتب المسيحية والأخرى وكذا الأدب المسيحي، باعتبار ذلك غير جدير بالإهتمام نفعا، وقد تبيّن أنّ هناك ألف يتحدثون العربية بأناقة، وينظمون بهذه اللغة أشعارا تتفوق على أشعار العرب أنفسهم. كل هذا الإهتمام جعل القصد منه تجسيد الحوار الإنساني الذي لعبت فيه اللغة دورا مهما في استقطاب العديد من الدارسين في رحابها من هذه الأقطاب المتواجدة في الأندلس العريقة. تؤكد دة.ماريا على أنّ الترجمة قد لعبت دورا كبيرا خلال القرون التي كان فيها المسلمون يعدون العلوم العقلية والفلسفة عنصرًا ضروريًّا لمكانتهم، هذه الثقافة القائمة على الترجمة المتسامحة بالضرورة هي التي استهدفت المسيحية اللاّتينية، وانتقلت بفضلها العلوم منْ قرطبة إلى سائر الأقطار الأوربية، وأثرت على الصعيد العالمي برمته، وتؤكد أيضا أنّ مشروع الترجمة كان آلة أكثر فعالية في عملية بين المشرق والمغرب، سواءٌ منْ حيث نتائجه المباشرة أو البعيدة المدى، وفيما يتعلق بهذا الزخم من التراجم، فإنّ الأمر لم يكن يتعلق بمجرد ترجمات من العربية وحسب، بل كانت هناك نصوص تستلهم دعائم ثقافية تجعلها تدخل ثقافة أخرى، وهكذا فقد حُررت دراسات عنْ تاريخ العالم وعن مجاميع القوانين وأبحاث علمية أغنت التراث القديم، بالإضافة إلى أنه كانت هناك مؤلفات لم يسبق ترجمتها من اللاتينية لعدم الإهتمام بها وإهمالها، بحيث وجدت اهتماما كبيرا بها وانتشرت الكلاسيكيات التخيّلية الأولى ولقيَت حضورا مهمّا وقبولاً واسعًا في الساحة الفكرية والثقافية في البلاد الأندلسية، وقد كانت قرطبة عاصمة الفكر والحوار الإنساني بما قدمته من عطاء حضاري زاخر، مما أبرزت دورها في إشاعة ثقافة التعايش بين المعتقدات والأجناس والتقريب بين الأفكار حولها والكتب والمصنفات الضخمة، وتعدُّ المكتبات منَ المآثر الثقافية التي يحترم فيها العلم والعلماء، وقد شيدها أمراء كانت لهم الوسائل التي يدينون بها بالإحترام، بحيث كانت الدراسات عن الدين واللغة والثقافة تحتل مكانة مهمة في المكتبة الإسلامية، وهذه المؤلفات قد يندهش لها أيّ زائر مسيحي، وقد تقلب معرفته الفضفاضة في الغالب بالعالم الكلاسيكي، ومنَ الأمور الموحية أنّ الشخص الذي أمدّ الراهبة هروتسفيتا بمعلومات عن تراث قرطبة وعطاءها، باعتبارها موقعا مركزيًّا، وقد كانت مكتبات قرطبة تشكل بنية مهمة على الشعور العام بالرضى والإكتفاء وليس على المعرفة والعلم فحسب، ذلك أنها كانت تقع تحديدا في الترابط بين المادي والفكري، وقد عملت هذه المكتبات بدورها على تحفيز نشاط مكثّف في ميدان التجديد والإبتكار بفضل ثقافة الحوار والتكامل والتعايش الذي

يحدد تطور المجتمعات.[١]

وفي هذا السّياق هناك نماذج حيّة تثبت صلاحية وصحة وجود ثقافة التعايش والحوار الإنساني بين مختلف الشرائح والمعتقدات والألوان، في إشارة عن الجماعات اليهودية التي شكّلت عنصرًا مهمًّا في المشهد الثقافي الذي كان في أزهى ازدهاره إثر اندماج معظم يهود في ثقافة قرطبة، فغادروا العاصمة العتيقة المنهارة، متوجهين صوب العاصمة الجديدة. تؤكد دة.ماريا من خلال ذلك على عدالة ونزاهة وتسامح المسلمين، حيث تمكن صموئيل بن نغريلة بعد فراره مع أسرته من قرطبة واستقراره في مدينة مالطة من دخوله في هذا الركن باعتبار فنون قرطبة الأموية، وسرعان ما صار وزيرا، كما أضحى في الوقت الأول للجماعة اليهودية، وهناك الكثير من الأمثلة الدالة على ذلك أوردتها دة.ماريا من خلال كتاباتها الموسوعية التي أرخت فيه الحضارة الأندلسية، مبرزة على تأكيد ثقافة التسامح والحوار الإنساني الذي اتسم بها المسلمون بالأندلس في كل مراحلها، ذلك بدءاً من مرحلة المدّ منتصف ق٨م، إلى غاية بداية ق١٣م، فقد انطلقت من فرار عبدالرحمن الداخل من دمشق، مرورا بما بناه الأمويون من مآثر معمارية وثقافية في إطار خلافتهم الأندلسية، حتى مرحلة الجزر وما واكبته من أزمات لحقت مناطق عديدة من البلاد في أعقاب سقوط الخلافة، وما خلّفها من تناحرات ملوك الطوائف، ثم دخول الأندلس في دولة المرابطين ودولة الموحدين، ثم الحروب الصليبية التي أدت إلى سقوط الأندلس. فقد حاولت دة.ماريا رسم المسارات الثقافية للأندلس منذ دخول العرب إليها عبر تصوير تلك الشخصيات الفاعلة التي أسست لثقافة الحوار والتسامح وبناء المجتمع الحضاري وبيْد تتبع تواريخ المآثر التراثية والحضارية، فقد ذكرت دة.ماريا افتراض استقرار الأمويين بأوربا يعدّ حدثا حاسما أسّس أوربا الحديثة وبنى صرحها على اعتبار أشكال التأثير الذي مارستها الحضارة العربية الإسلامية إبان العهد الأموي تحديدا.[٢]

وخلاصة القول، فقد اتضح جليًّا منْ خلال كتاب دة.ماريا، إبراز البعد الثقافي للحوار الحضاري الزاخر للأندلس المسلمة، وذلك من خلال تجسيد ثقافة الحوار والتسامح والتضامن بين مختلف الثقافات، وهذا بصرف النظر عن كثير من المستشرقين الذين أنكروا هذا التراث، بل شككوا فيه وأبطلوا كل ما خلفه المسلمين الفاتحين، لذلك فقد كانت دة.ماريا في غاية الإنصاف وهي تدرس تاريخ الأندلس بشكل موضوعي وتصف المسلمين بأنّهم أصحاب عطاء حضاري زاخر،

(١) الأندلس العربية، دة.ماريا، السابق، ص٣٤.

(٢) الأندلس العربية، دة.ماريا، السابق، ص٥ (بتصرف).

وقد أثروا في أوربا أيّما تأثير في ثقافتها ونهضتها ورقيها، ونتيجة ذلك عرفت إقلاعا فكريا وعلميا وحضاريا وثقافيا، اعتمادا للبُعد التنظيمي في ذلك، وهذا عكس ما ذكره العديد من المستشرقين أمثال كولدزيهر وبيدرو ديلاّكَاضَا وغيرهم.

الحوار الإنساني في الأندلس وأهميته في بروز العلوم المختلفة:

نظرا لِمَا شكلته الحضارة الإسلامية في الأندلس وشواهد على ذلك عديدة ومؤلفات تعبِّر بالفعل على ما تزخر به تلك الحضارة المجيدة، في هذا السياق سأذكر كتاب دة.ماريا بعنوان: الأندلس العربية -إسلام الحضارة وثقافة التسامح-، وهذه شهادة حيّة عن التسامح والتعايش والحوار الانساني الذي ساد الحضارة الأندلسية، فالكتاب من حيث شكله ومضمونه يقدّم عبْر صفحات هذا السفر الشائق رصدا شاملا لتاريخ الأندلس المسلمة من منظور يغاير ما دأبت عليه الخطابات التاريخية عن الأندلس وعن إسلامها وعروبتها وثقافاتها العريقة، إنه منظور يتشكل من نظرة الغرب، باعتباره نوع لا يصادر الآخر، ولا ينساق وراء بعض التعميمات المختزلة للثقافة الإسلامية الأندلسية، بل يعترف بها وبمنجزاتها الإنسانية ومن نظرة الحاضر، وضرورة الإستفادة من دروس الماضي من خلال تلك الثقافية القائمة على التلاقح والتعايش في إطار ثقافي يجمع دون غضاضة بين المتعارضات، بل يشكل ذلك الموروث الحضاري المشترك النابع من اتساع الفكر وامتداده عبر التاريخ المتداول عبر الأجيال، فهو موروث يقتضي الوعي به وتغذيته في الحاضر والمستقبل، وهذا الكتاب وغيره مما صدر من بعض الكتّاب والفلاسفة الأجانب المنصفين، وهذا الكتَاب بالذات يحمل تصورا عميقا زاخرا لحضارة الأندلس في تاريخ حركية المسلمين، ذلك التاريخ المتحضر بوصفه بحثا في الظواهر الحيّة والمنشودة، وليس بوصفه بحثا في الظواهر الزائلة البالية أو السافرة عن الحق، ولكنه تاريخ يمثل الموروث المدون في وجه العالم الهمجي البربري، بل يزكي كل الإدعاءات التي طالما افترى بها المستشرقون الذين يعلنون العداء على رواد حضارة الأندلس وتغلفهم الأفكار الإيديولوجية الجاهزة من أصحاب المدارس والجامعات التي اشرأبت بالأفكار الغربية المعادية للإسلام وحضارة المسلمين في الأندلس على وجه الخصوص، وكتاب دة.ماريا يكمن في محاولته تقديم نماذج من الحوار والتسامح بين الشرائع الثلاثة التي تعايشت في الأندلس، ومن التساكن الذي غلب على تجاور القيم الثقافية المتنافرة والمنتمية لشعوب المنطقة، وكذا جماعات إثنية عرقية متباينة، إلى جانب ذلك الإقبال الكبير الواسع الذي حضي منْ قِبَلِ مختلف الشرائح المجتمعية التي أتقنت اللغة العربية ولبست اللباس العربي وأقبلت على الفنون

العربية منْ شعرٍ وغناء ومعمار، وكان لهذا التأثر نتائج على نهضة الفنون والآداب بأوربا ولا تزال ترفل إسبانيا بالمخزون الثقافي والعلمي الذي خلّفته الحضارة الإسلامية في الأندلس وما استهدف أيضا التقدم العلمي على أوربا عموما، وقد قدّمت دة.ماريا درسا رائعا في تمثيل هذه الحضارة لكافة الدارسين والباحثين الذين يحسنون استخلاص تلك الدروس والعِبر، ومثال ذلك الدور الذي لعبته الترجمة في تمرير الثقافات وسيرورات التملك المعرفي المبني على أسس التسامح والحوار، وكذا المصائر المتشعبة لعينات منَ الذخائر العربية المنقولة منْ قِبَلِ المعربين من يهود ومسيحيين لاّتينيين في لغاتٍ عالمية ومحلية، كما تشكّل هذه الحضارة حركة تقدمية من حيث تطور اللغات في أوربا الوسيطية وتدافعها وتجددها المتصل بالعصر الحديث، وهو مسرح شاسع شهدته طليطلة التي مثّلت معهد الترجمة العالمي وكانت بذلك قِبلة المنقبين عن الكنوز العربية رمز العقلانية والفكر والحوار، وكذلك في إشبيلية وغرناطة وصقلية على هذا المسرح عبّرت عن لغات وتلاقحت ثقافات وسكبت تراث اليونان والعرب في أقداح بعضها البعض، كما تكرّس التسامح الحضاري الذي لم تتوقف عن إجهاضه وهدْر مكتسباته النزْعات الإيديولوجية أو السياسية أو العقدية من أي جهة نشطة بدورها، وقد تطرقت دة.ماريا إلى الموضوع باعتمادها على تتبع للشخصيات العلمية، وهي تتلاقح وتتجاور وتتحاور، فالأزمنة المعتمدة في سرد الوقائع التاريخية أزمنة حضور، فهي أزمنة تمكّن السارد من التواجد في الواقعة والعيش داخلها رفقة أبطالها، ولعل هذا الانشغال هو الذي جعل أفكار دة.ماريا تعتمد على تقنية الدمج، فلا تترك معلومة تعرفها دون أنْ تدرسها في السّياق حتى تكتمل الصورة ويحضر معها القارئ ضمن الشخصيات، أما الوقائع المسرودة فهي وقائع من منظورات أشخاص عاشوا المرحلة وبنوا فيها معالم ثقافية مادية أو مجردة من معمار وأدب وفكر وفنون وعلوم، وكوْن دة.ماريا طويلة الباع في الحضارة الأندلسية، فقد برز ذلك في كتاباتها حول الموضوع، بإعادة القراءة للتاريخ الثقافي والأدبي في الأندلس، فإنّ هذا الكتاب يمثل عملا تركيبيا للحضارة الأندلسية، ولكنه مفاجئ أيضا باختلافه، عندما يؤكد أنّ الحداثة الأوربية تعود في كثير منْ مظاهرها وأفكارها إلى ما قدمته الأندلس منْ نموذج حضاري وإنساني، وعندما يصرّ على أن تعايش الشرائع السماوية الثلاثة ومعتقداتها في ظل دولة الإسلام في حضارة الأندلس المسلمة يظل حلمًا إنسانيا مفتوحا على المستقبل.(١)

(١) الأندلس العربية، دة.ماريا، السابق، ص٦ (بتصرف).

وخلاصة القول، إنّ الحوار الإنساني، قد شكل أبعادا مهمة خلال الحقبة الأندلسية، مما كان له أثر على الحركة العلمية والثقافية في مختلف المشارب والحقول المعرفية، فكان لهذا الحوار وقْع كبير في تدفق واسع أسهم في بروز العلوم الإنسانية والإجتماعية والطبية وغيرها، وكان لذلك أثرا عظيما على تطور أوربا، وهذا الذي يتجسد في الواقع.

الحوار الحضاري الإنساني في نظر المفكر روجي جارودي:

إنّ للمفكر روجي جارودي موقف تاريخي أبرز من خلال كتابه: -حوار الحضارات-، باعتباره الأول من تكلم عن فكرة حوار الحضارات، معبّرا عن نظريته الرائدة ومشروعه للجمع بين الحضارات المختلفة على أساس أرضية مشتركة تمثل جسرا للتفاهم على مستوى شعوب الأرض. لقد كانت تجربة المفكر جارودي تجربة إنسانية طويلة تزخر بعمق تاريخي يمس مسار البشرية في جميع جوانبها بمختلف شرائحها زهاء مرور عقدين من الزمن، والعالم لا يزال يتعامل بواقع ثنائي القطبية. لقد أبرز جارودي نظريته الرائدة التي تحمل مشروعا هادفا يراد به الجمع بين الحضارات في إطار الحوار والتفاهم على مستوى الأمم والشعوب، فأطلق لهذا الكتاب إسما يدل على مسماه -حوار الحضارات- فقد تطرق المفكر روجي، إلى مشروعه الذي يتسم بنقد الصراع الطبقي عموما بنقده الهيمنة الأمريكية، لقد كان تصوره لحوار الحضارات الذي يرمي إلى وحدة المعتقدات القائمة على مذهب واحد، لهذا نجد الكتاب يعالج الإشكالات المطروحة حول جذور الحضارة الغربية وأهم الأسس التي أثرت فيها جراء السيطرة الغربية في عدم الإنفتاح على الآخر، يشتمل على مقدمة ومدخل وخمسة فصول وخاتمة، يصبُّ هدف المؤلف بتناوله هذا الكتاب إلى نتيجة مفادها تكريس حوار الحضارات، يقول المؤلف: «إنني لأرجو أنْ يُسْهِم هذا الكتاب في توسيع هذا الحوار وتعميقه والإستعاضة عن هيمنة الغرب الثقافية المفروضة خلال أربعة قرون منَ الإستعمار بتجربة سنفونية هي تجربة الثقافة العالمية الشاملة.»(١)

يوضح المؤلف في مدخل كتابه الهدف المنشود من حوار الحضارات هو أن يخترع الجميع مستقبل الجميع، في الفصل الأول من كتابه فقد أشار إلى-بلد الغسق وأساطيره- يؤكد ما جاء به الفيلسوف بول باليري من أن أوربا وليدة ثلاثة في المجال الأخلاقي الكاثوليكي وفي الحقل السياسي الروماني، وفي المجال الفكري فقد ورثته عن الإغريق مبينا ملحمة -جلجاميش- نشأت

(١) حوار الحضارات، روجي جارودي، مراجعة: محمد غشام، منشورات عويدات، ط١٩٩٥م، ص٣٦٤.

قبل هوميروس بألف وخمسمائة سنة. أما الفصل الثاني فقد تمّ في موضوع -الغرب غرض-، حيث أبرز فيه أنّ الحضارة الغربية رجحت الفعل والعقل في مقابل ريحان زيادة رأس المال والربح مبينا أن التطور الغربي هو في حقيقته تفوق في السلاح والسيطرة على الثروة المائية وثروات الشعوب وإبادة بعضهم مثل الهنود الحمر في المكسيك (المايا والأزتيك) وإجبار البلدان الإفريقية للسيطرة على عوامل الإنتاج ومحاصيلها الزراعية، وإشاعة الرق وتهجير ملايين العبيد إلى أمريكا -سوق النخاسة- وقتل زهاء مائة مليون منهم، وفرض زراعة الأفيون على الصين والإنتقال من تجارة الرق إلى الإستعمار لأسباب اقتصادية سياسية واهية. والفصل الثالث تحدث عن الفرص المفقودة التي تهدف إلى التعرف على الحضارة المنفية التي هدمها الإستعمار كإبادة ثقافة -الأزتيك- و-المايا- في أمريكا وإبادة معابد -بالنك- في جنوب المكسيك والقضاء على الحضارة الإسلامية في الأندلس، واحتقارهم العلوم التي تزخر بها الصين في علوم الجبر واختراع المطبعة وغيرها، وأشار المؤلف إلى فقد الكثير من الأساطير الهندية والبوذية. والفصل الرابع تحدث فيه عن الأبعاد المطلوبة، مبرزا تأليف الثقافات اللاّغربية في الفن الغربي منذ عصر النهضة مثلا، الفن الإيراني في صناعة السجاد وعروق التنين والأفاعي الصينية في رسم اللوحات باعتبار ما يستوحيه بياسكو أقنعة الفنان الإفريقي في الشام، مبرزا مدى تأثر الشعر الإسلامي الوفي في الغرب مثل قصائد العطار والرومي والسعدي والشيرازي، كما استوحى الشاعر الفرنسي أراكون مجنون إليزا من جنون الحب لدى مجنون ليلى كما نوه عن خلفية المسجد وما يزخر به من فنون شتى، وقد عبر المؤلف عن ذلك بعمق في عدة مواضيع قائلا: «جميع الفنون تقود إلى المسجد والمسجد يقود إلى الصلاة.» مبينا خلاصة موقفه عن إفريقيا بأنها تمزج بين الفكر والمادة، وفي إطار حديثه عن الإشتراكية في إشارته إلى الجماعات الإفريقية وميثاق الجزائر، مبيّنا إمكانية تكامل الإسلام والإشتراكية، فأعطى على ذلك نموذج الزكاة التي هي ضريبة تتيح إعادة توزيع الثروات وعدالة القرامطة أنموذج وساتياغراها غاندي، وكذا تربية المضطهدين التي دعا لها باولو ولاهوتي التحرر والطاوية الصينية، كما ختَم الكتاب وبدوره جسّدَ موقفه في موضوعه المسمى بـ -الحِلف الثالث- مبينا عملية البحث التي ينبغي أن تنطلق منْ نظرة سنفونية للثقافة، وأنَّ الحوار الذي يسعى إليه هو ألاَّ يتنصّر المسلمون ولا يتحوّل المسيحيون إلى الهندوسية، بل عليهم بإتباع ديانتهم، ويتّضح مراد المؤلف الذي يستدعي كل واحد التشبث بثقافته الخاصة، وفي إطار حديثه عن -الحِلف الجديد- الساعي إلى حلف الحضور الجديد ليسُوع، باعتبار أنّ الحِلفَ الثالث المبحوث عن جذوره بين الشعوب يدعوا إلى علاقة جديدة بين الإيمان والعلم، وفي نظر المفكر جارودي حول الواقع، قال: «وخلال

هذا الواقع الراهن وحيث تعصف أحداث عالمية في مهبِّ العولمة والسيطرة وهيمنة القوي الجبار على الضعيف المتخلف.»(١)

ونظرا لمعرفته بالإسلام وقيامه بتأليف العديد منَ الكتب التي تمجِّد تعاليمه حوله، حيث قال: «قيَم الإسلام وتعاليمه واعتباره طريقا سويًّا لفلاح الإنسان دينا ودنيا، فقد قال في مقدمة كتابه -حوار الحضارات- إنني انطلاقا من فنون الإسلام ومساجده إنما شرعت أفهم عظمة العقيدة الإسلامية بتأكيدها الجذري على التعالي وفي الوقت نفسه ومن خلال القرآن الكريم، وعلى قبول لا يقتصر على سائر أسر الإيمان الإبراهيمي، وآمل أنْ يُسْهِم هذا الكتاب -حوار الحضارات- في توسيع الحوار وتعميقه والإستعاضة عن هيمنة الغرب الثقافية المفروضة خلال أربعة قرون من الإستعمار بتجربة رائعة هي تجربة الثقافة العالمية الشاملة.»(٢)

وحسب تصور المفكر جارودي، فإنّ مطلب حوار الحضارات، يهدف إلى الإسهام على الصعيد الثقافي في بناء نظام عالمي جديد، يمثل ما يدعوا إليه الأب ليبرت مؤسس الإقتصاد والمنزع الإنساني، يسعى إلى تشكيل السلطة المضادة وهي سلطة مشخصة ضرورية لإتمام الأنموذج الحالي للمجتمع، وأنّ المشكلة الأساسية في الثقافة الحاضرة هي القضاء على التصور التسلطي في الثقافة الغربية والإستعاضة عنه بتصور سمفوني، أو نتطلع بأسئلتنا إلى حكمة العالم اللاّغربي، وقد أصبحت المشكلات تطرح من الآن على المستوى العالمي، ولا يمكن أنْ تحلّ إلاّ على المستوى العالمي، وذلك بالإنخراط في حوار حضارات حقيقي مع الثقافات غير الغربية.(٣)

وخلاصة لما سبق يمكن القول إنّ نظرة المؤلف تدعوا إلى الإنفتاح والحوار الغربي بين سائر الحضارات باعتبار كتاب -حوار الحضارات- يجسّد مرحلة تاريخية يشتمل كل المجالات لتحقيق التوازن بين جميع الحضارات، هذا بصرف النظر عن اتصال الغرب ومشاركته لباقي البلدان في خضَم الغايات التي يطمح إليها مِنْ خلال مبادئه الرأسمالية الكبرى، ونستنتج مجموعة منَ الملاحظات منْ خلال مواقف جارودي الفكرية، وهو مفكر غربي منصف إلى حدٍّ ما يقف موقف النقيض منَ التسلط والسيطرة متحيزا المنهج الميكيافيلي المجهض سبل الحوار الذي به تكتمل الحضارات وتتعايش فيما بينها. وكتاب -حوار الحضارات- يهدف إلى الإنفتاح في شتى ميادينه على أفاق مشرفة بمستقبل أفضل، فقد عبّر عن ذلك بالقول: «هذه نظرات مفكر غربي منصف

(١) حوار الحضارات، روجي جارودي، ص٣٦٣.
(٢) حوار الحضارات، نفسه، ص٣٦٤.
(٣) حوار الحضارات، نفسه، ص٣٦٥ (بتصرف).

يقف الموقف المضاد للنزعة الكولونيالية التسلطية التي لا ترتضي الحوار سبيلا لتكامل الحضارات ولقاءاتها منْ أجل خيرِ الإنسان وحريته ورقيّه، ويبرز واقع الأنا الحقيقي الذي هو بالدرجة الأولى علاقة بالآخر وعلاقة بالكل، وهو يساعد في جميع المجالات أحدث تجدُّدات الثقافة الغربية، وأنّ الإستمرار في إتباع المنهج الميكيافيلي منْ حيث استخدام السيطرة الرأسمالية قد دمّر كل شيء، كما لو أنّ الغايات كانت معطاة بصورة ضمنية في إرادة السيطرة والربح وخلق[١] الأسواق القومية، وبما فجرت به الأمم مسيحية العصر الوسيط.[٢]

إن نظرة المفكر جارودي منصبّة على الحوار الذي يستوحي: «الإنفتاح والحوار الغربي مع سائر الحضارات..»[٣]

اعتبار وحدة الدين وتفنيذ مفهوم حوار الأديان:

وأختم هذا البحث في مسألة حوار الأديان بدوري تصحيح مصطلح -أديان- بالجمع، واستبداله بمفهوم -الدين- الواحد بالإفراد، وتفنيذ مفهوم حوار الأديان، على اعتبار خلفية أصول الحوار الإنساني الذي ينبثق من تعاليم الدين الإسلامي، كونه يشكل نقطة تواصل بين المختلفين على مستوى الفكر والإستراتيجيا والقوانين والأعراف والثقافات وغيره ذلك، لكن حين يتعلق الأمر بالدين، ينبغي تصحيح مقولة وحدة الأديان حسب ما يزعم بعض الناس أنّ هناك العديد من الأديان، وهو في حقيقة الأمر أنه ليس هناك سوى دين واحد منذ الأزل، أي منذ بداية الخليقة على وجه الأديم، قال الله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الذِينَ أُتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ إِنّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ ۚ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۗ وَقُلْ لِلّذِينَ أُتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ۗ آَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقُلْ اهْتَدُوا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَ غَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ} آل عمران: ٢٠.

فالقائل بوجود الأديان السماوية الثلاثة، أو تبني فكرة حوار الأديان بدعوى التعايش بين الأديان، يعتبر مفهوما خاطئا ولا أساس له من الصحة، فهذا التصور شاذا ومخالفا لما صرح به القرآن الكريم، بل هو انحراف عقائدي، بحكم أنّ كل من اليهودية والنصرانية أو البوذية وغير ذلك،

(١) أرتاينا تعديل لفظ خلق، لأنّه من صفات الله عز وجل، بتسمية أخرى حسب السياق، مثلا: «.. في إرادة السيطرة والربح وإيجاد الأسواق القومية..».

(٢) حوار الحضارات، روجي جارودي، ص٣٦٦.

(٣) حوار الحضارات، نفسه، ص٣٦٥.

تسمى بمفهوم ديانات وليست أديان سماوية، لذلك ليس سوى أنّ هناك شرائع وكتب سبقت القرآن الكريم وهم الزبور والتوراة والإنجيل، وصحف إبراهيم، وكل هذه الكتب تنطوي تحت دين التوحيد وهو دين الإسلام، أما مفهوم النصرانية أو اليهودية أو المجوسية مجرد معتقدات محرفة ومنحرفة عن عقيدة التوحيد، قال الرسول ﷺ: [كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.][1]

فالشرائع تختلف بحكم أنّ كل شريعة تختلف عن الأخرى في التشريع، ولكن الدين المعتقد واحد، فكل الأنبياء والرسل دينهم واحد وهو الإسلام، أما الإدعاء بأنّ اليهودية والنصرانية دين فهذا غير صحيح، فاليهود والنصارى هم الذين سموا أنفسهم بذلك، ولم يسميهم الله سبحانه -النصارى أو اليهود-، قال تعالى: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ} المائدة: ١٤؛ {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا} البقرة: ١٣٥.

فهم الذين قالوا على أنفسهم، ولكن كل الأنبياء والرسل قالوا إنا مسلمون حتى فرعون، قال حين أدركه الغرق: {قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} يونس: ٩٠.

وهذه الآيات الكريمة وغيرها تدل على أنّ الدين واحد وهو الإسلام وليس بمفهوم الأديان الذي مفرده دين، قال نبي الله نوح عليه السلام، كما جاء في القرآن الكريم: {فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} يونس: ٧٢.

وقال نبي الله إبراهيم عليه السلام لبنيه في القرآن: {وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} البقرة: ١٣٢ ؛وقال نبي الله يوسُف عليه السلام: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} يوسف: ١٠١.

وقال نبي الله موسى عليه السلام: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ} يونس: ٨٤ ؛ وقال نبي الله عيسى عليه السلام: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران: ٥٢.

وجاء خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، يحمل الشريعة الإسلامية التي تدعوا لدين الإسلام، وفق منهج كامل ونهائي وناسخ لكل الشرائع السابقة، قال الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينا} المائدة: ٣.

---

(١) الجامع الصحيح، الإمام البخاري، رقم: ١٣٥٨ (عن أبي هريرة رضي الله عنه) ؛ الجامع الصحيح، الإمام مسلم، رقم: ٢٦٥٨

وتأتي الآية الجامعة لكل الأنبياء وهم يقرّون بأنهم مسلمون في القرآن الكريم، مبينا وعيدَ من يتولى أو يعرض عن الدين الإسلامي: {أَفَغَيْرَ دِينَ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ وَمَا أُتِي مَوسَى وَ عِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسَلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ} آل عمران: ٨٥.

وهذه الأدلة من القرآن الكريم تبيّن حقيقة مفهوم الدين الواحد الذي يحث على التوحيد والإتحاد والوحدة والسلام والإخوة والتعايش والتسامح والتناصر والتضامن بين مختف الأجناس والألوان والهويات والثقافات، بهذا تكتمل صور الحوار الإنساني، باعتبار الدين الإسلامي القاسم المشترك بين كل الناس كافة.

الخاتمة

لم يكن التطرق إلى موضوع الحوار الإنساني بشكل عام في هذا البحث، استثناء الإشارة من خلال ذلك إلى حِقبة زمنية إبّان العهد الأندلسي، مبيّنا أثر الحوار الإنساني ووقعه في المجتمعات المختلفة في العصر الأندلسي، كون الأندلس محطة مِفصلية في تاريخ الحوار بين مختلف الأجناس والألوان والثقافات، فقد حاولتُ الوقوف عند بعض الأحداث المهمة في الموضوع مراعيا الإختصار، معتمدا على بعض المصادر والمراجع، فلم يكن هذا العمل إلا اجتهادا بسيطا له دلالات ومآلات، بحيث لا يمكن لأي إنسان مهما بلغ أن يعيش بدون حوار إنساني مع غيره من الناس في أي زمان ومكان. ويتجلى الحوار الإنساني في تحقيق أهداف الإجتماع البشري وتكريس قيم التعايش والتعارف بين المجتمعات المختفة، ونظرا لارتباط مفهومه في القرآن الكريم وتطبيقه في عهد النبوة والخلافة الراشدة، وبروزه في تاريخ الحضارة الأندلسية فتحققت فيها أهداف الحوار الإنساني بشكل ملموس وجلِي، استجابة لسُنن الإختلاف البشري في المعمور. لذل حاولت عرض بعض النماذج التاريخية من واقع الحضارة الأندلسية التي تؤكد الجانب الحضاري للحوار الإنساني بين مختلف الأجناس والثقافات والمعتقدات. وفي ختام هذا البحث الموسوم، نخرج بهذه **النتائج** وبعض **التوصيات**، وهي كالآتي:

النتائج:

- أنّ الحوار الإنساني، قد حدد موضوع معرفة الإجتماع البشري ومعرفة أساليب الحوار وضوابطه وتجلياته، فلا ينظر الإنسان إلى قواعد الحوار ومبادئه إلا أنّه مبدأ ينسجم مع السّنن الكونية في مراعاة مسألة الإختلاف.

- أنّ الحوار الإنساني الأندلسي هو المقصِد الأساس الذي ينبغي إدراكه، باعتباره نموذجا إنسانيا واقعيا في بناء صرح الحضارة الإسلامية بين الأمم والشعوب المختلفة.

- أنّ مسألة الحوار الإنساني عموما وفي الأندلس خصوصا وتحديدا، يعتبر مفهوما عظيمَ الأهمية بما يحقق التعارف والتضامن والتعايش بين المختلفين.

- أنّ فكرة حوار الأديان مفهوم خاطئ من أساسه، بحكم وحدة الدين الواحد الذي يشكل نقطة تواصل بين مختلف أجناس البشر وطبائعهم ووجهات نظرهم.

التوصيات:

وأما **التوصيات**، فهي على النحو الآتي:

- أنّ المنهج الإنساني للحوار الحضاري الإسلامي تطبيقاته أوسع من كونه يروم في تحقّق المصلحة المنوطة بمقاصد الشريعة، بحكم أنّ أهمية الحوار في تاريخ المجتمعات، يعد نقلة منهجية تأسيسية مقاصدية لتبادل الأفكار والآراء، ودراسة الأحداث التاريخية لاستخراج مآلات الحوار منها ونتائجه المثمرة مع المخالفين والمختلَف معهم.

- أنّ الحوار الإنساني محتاج للتفسير الموضوعي المستمد من النصوص القرآنية والحديثية وهدي الأنبياء والمرسلين، مما استوعب أحداثا تجسد أهمية الحوار الإنساني بين كل شرائح المجتمع عبر التاريخ.

- أنّ استمرار البشرية على المنهج الديني رهينا بجعل الحوار الإنساني يضْمن سلامة العلاقات سُبُلَ التكامل والتعارف، وهذا الذي يحقق رقيها تجسيدا لقيم الإنسانية بين أفرادها عموما وبين المخالفين خصوصا.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، قراءة نافع، رواية ورش، طريق الأزرق؛
الحديث النبوي الشريف؛
الجامع الصحيح، الإمام البخاري، رقم: ١٣٥٨ ؛ الجامع الصحيح، الإمام مسلم، رقم: ٢٦٥٨.
١. المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس-نموذج من العطاء الحضاري الأندلسي-، د.إبراهيم القادري بوتشيش، مجلة دراسات أندلسية، تونس، عدد: ١١، رجب ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٢. الطّبقات الكبرى، ابن سعد، تحقيق: إدوار سخاوي، ليدن بريل، ب.ط.ت؛
٣. السيرة النبوية من البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي، باب هجرة من هاجر من أصحاب رسول الله ﷺ من مكّة إلى أرض الحبشة، ب.ط.ت؛
٤. مقامع هامات الصلبان وروائع رياض الإيمان، أبو جعفر أحمد بن عبدالله الخزرجي، ط إلكترونية، ب.ت؛
٥. موسى ابن ميمون-حلقة وصل بين الشرق والغرب-، أبو حامد الغزالي، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، ١٤٠٦/١٩٨٦م؛
٦. الرسائل، ابن حزم الظاهري الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨١م؛
٧. المناظرة الكبرى بين الشيخ أحمد ديدات والقس أنيس شوروش، ذ.أحمد الصفناوي ديدات، مكتبة ديدات، الناشر المختار الإسلامي، ط١٩٩١م؛
٨. السيرة مستمرة، أحمد خيري العمري، بيروت، ب.ط.ت؛
٩. من الفكر الفلسفي اليهودي العربي، أحمد شحلان، ط إلكترونية، ١٩٧٩م؛
١٠. الأعلام، الإمام الزركلي، ط١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م؛
١١. دلالة الحائرين، الحاخام موسى بن ميمون، عدد: ٥-٦، مجلة كلية الآداب، الرباط، ب.ط.ت؛
١٢. ملامح الحوار الديني في الحضارة الأندلسية، د.بومدين كروم، ١٤، ١٥، ١٦ ربيع الأول ١٤٢٨هـ/٢، ٣، ٤ أبريل٢٠٠٧م، أعمال الملتقى الدولي الحضارة الإسلامية بالأندلس، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، ٢٠٠٨م؛

١٣. الأندلس العربية-إسلام الحضارة وثقافة التسامح-، دة.ماريا روزا مينوكال، ترجمة: عبدالحميد جحفة ومصطفى جبّاري، منشورات دار توبقال للنشر، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م؛

١٤. حوار الحضارات، روجي جارودي، مراجعة: محمد غشام، منشورات عويدات، ط١٩٩٥م؛

١٥. تاريخ النصارى في الأندلس، د.عبادة كيحلة، المطبعة الإسلامية الحديثة، ب.ط، ١٩٩٣م؛

١٦. التسامح الديني وأثره في حضارة الأندلس، د.عباس الجيراري، ورقة بحثية ضمن فعالية الندوة الحضارة الإسلامية في الأندلس ومظاهر التسامح، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، ط١، ٢٠٠٣م؛

١٧. حول التسامح الديني، د.محمد بنشريفة، ضمن مجلة دراسات أندلسية، عدد: ١٤، جوان، ١٩٩٥م؛

١٨. إسلام نجاشي الحبشة ودوره في صدر الدعوة الإسلامية، منيسي سامية، دار الفكر العرب، جامعة ميتشيغان، ٢٧ جوان ٢٠٠٩م، الكتب ذات التنسيق الرقمي،٢٠٠١م.

١٩. المعيار المعرب والبيان المغرب في فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، القاضي الونشريسي أحمد بن يحي٩١٤هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١٩٨١.